الفصل السابع

شوبنهور
(١٧٨٨-١٨٦٠م)

obeikan.com

شوبنهور

• ١- العصر:

علت أصوات التشاؤم في النصف الأول من القرن التاسع عشر في أوروبا، فكان من الممكن أن نلاحظ ما يلي:

- علت أصوات الشعراء المتشائمين في جميع أنحاء أوروبا، مثل بايرون في إنجلترا وألفرد دي موسيه في فرنسا وهيني في ألمانيا وليوباردي في إيطاليا وغيرهم
- ظهرت مجموعة من الملحنين المتشائمين مثل شوبرت وشوبان وشوين وحتى بيتهوفن أيضًا.

إلا أن شوبنهور فاق الجميع في التشاؤم حيث كان طابعًا خاصًا بحياته وفلسفته. وقد ظهر كتابه "العالم كإرادة وفكرة" في الوقت الذي اتحدت فيه أوروبا وهزمت نابليون في معركة واترلو. وبذلك قُضي على الثورة الفرنسية ونفي نابليون إلى سانت هيلانة. وقد تأثر شوبنهور بنابليون فكتب عن الإرادة ومجدها، كما أن يأسه يعود إلى تأثره بالخاتمة المحزنة التي تعرض لها نابليون. فقد هُزمت الإرادة حين هُزم نابليون. وكالعادة انتصر الموت. وعاد الإقطاع إلى فرنسا، وطالب الإقطاعيون باستعادة أراضيهم، كما انتشرت حركة رجعية تقاوم التقدم في أي مجال.

وهكذا انتهى العصر العظيم الذي قال عنه جوته[1]: "أحمد الله على أني لست شابًا

(١) - يوهان فون جوته (1749-1832م) هو أحد أشهر أدباء ألمانيا المتميزين، وقد ترك إرثًا أدبيًا ضخمًا للمكتبة الألمانية والعالمية، وكان له بالغ الأثر في الحياة الشعرية والأدبية والفلسفية، وما زال التاريخ الأدبي يتذكره بأعماله الخالدة التي ما زالت أرفف المكتبات في العالم تقتنيها كواحدة من ثرواتها، وقد تنوع أدب جوته ما بين الرواية والكتابة المسرحية والشعر وأبدع في كل منها، واهتم بالثقافة والأدب الشرقي واطلع على العديد من الكتب فكان واسع الأفق مقبلاً على العلم، متعمقاً في دراساته. (المترجم)

في هذا العالم المضطرب الذي ينتهي كل شيء فيه إلى الخراب." وقد كانت أوروبا كلها منهكة، حيث مات ملايين الرجال في الحروب وتُركت ملايين الفدادين من أراضي الزراعة بلا عناية. وكان لابد من العودة التدريجية إلى الحياة بعد كل تلك التضحيات الممزوجة بالألم، وذلك من أجل استعادة اقتصاد البلاد الذي أنهكته الحروب.

طاف شوبنهور في فرنسا والنمسا عام ١٨٠٤م. وتعجب من كمية القذارة والدمار والفوضى والفقر في القرى، وكذلك البؤس والتوتر في المدن. فقد خلفت جيوش نابليون وجيوش أعدائه الدمار والخراب في جميع أنحاء أوروبا. كما تحولت موسكو إلى رماد، وهبطت أسعار القمح في إنجلترا وأصيب فلاحوها بأزمة رغم الانتصار على نابليون. وتعرض عمال إنجلترا إلى جميع أنواع المشكلات والتوتر، ولم يكن النظام الصناعي في ذلك الوقت خاضعًا لإشراف الحكومة. كما زاد المسرحون من الجيوش من أعداد العاطلين عن العمل.

وأخيرًا جاءت النهاية، فهزمت جيوش نابليون وأرسل إلى سانت هيلانة وأقيم مؤتمر فيينا. وعادت عائلة بوربون[1] إلى عرش فرنسا المثقلة بالجراح والخسائر. إنها رواية هزلية امتزجت فيها الأفراح بالأحزان والضحك بالدموع.

وهكذا لجأ كثير من فقراء أوروبا إلى الدين طلبًا لشفاء الصدور وطمعًا في السلوى والعزاء. كما أن كثيرًا من المنتمين إلى الطبقات الاجتماعية العالية فقدوا إيمانهم واتجهوا إلى الكفر والإلحاد والشك في حياة الآخرة، وهذا هو العالم المضطرب كما شاهده الأوروبيون في عام ١٨١٨م.

انتصر الشر على الخير واستبد اليأس بالناس. وقد زرع فولتير الثورة في البلاد وحصد شوبنهور ثمارها المرة.

• ٢- الرجل:

ولد شوبنهور يوم ٢٢ فبراير ١٧٨٨م، وكان أبوه تاجرًا متميزًا وحاد الطباع. وقد اضطر الأب إلى مغادرة "دانزنج" بعد أن ضمها البولنديون إلى بولندا في عام ١٧٩٣م.

---

(١) - البوربون: أسرة مالكة فرنسية حكم بعض أفرادها فرنسا وأسبانيا ونابولي. يرجع اسم الأسرة إلى بلدة صغيرة بوسط فرنسا تعرف باسم بوربون لارشامبو. وقد أسس البوربون في فرنسا فرعًا من الأسرة الكابتية لملوك فرنسا. (المترجم)

وكان الابن "آرثر شوبنهور" لا يزال في الخامسة من عمره. مات الأب بعد ذلك منتحرًا في عام ١٨٠٥م ثم لحقت به الجدة وكانت مصابة بالجنون.

ورث شوبنهور أخلاق أبيه وذكاء أمه. وكانت أمه من مشاهير كُتاب القصة في تلك الفترة. وكانت أمه غير سعيدة في حياتها مع أبيه، وما أن مات الأب منتحرًا كما أسلفنا، حتى انطلقت الأم تبحث عن الحب الحر بعد أن تحررت من قيود الزوجية. فثارت ثورة الابن على أمه، وقد أثر ذلك الخلاف بينهما عليه وظل يكره النساء طوال حياته. وقد وصل الخلاف بينهما إلى طريق مسدود صورته الأم في رسالة له قالت فيها: "أنت عبء ثقيل لا يحتمل، والحياة معك لا تطاق. لقد فاق غرورك وصفاتك السيئة كل صفاتك الطيبة وأصبحت بلا فائدة."

وهكذا اتفق الابن وأمه على أن يعيش كل منهما حياة منفصلة عن الآخر وأصبح شوبنهور لا يذهب إلى بيت أمه إلا من حين لآخر مثل الضيف. وكانت سمة تلك الزيارات هي الاصطناع والتكلف.

وكان جوته صديقًا للأم، فقال لها ذات يوم إن ابنك هذا سيكون له شأن عظيم. فحزنت الأم من تلك الملاحظة، فهي لا تريد أن ينافسها ابنها في الشهرة. وذات يوم تشاجرت مع ابنها ودفعته على الدرج فسقط في الأسفل، فنهض وقال لها إن الأجيال القادمة لن تسمع عنها سوى أنها أمه. ولم ير شوبنهور أمه مرة أخرى بعد ذلك اليوم رغم أنها عاشت بعد ذلك الحادث ٢٤ عامًا. ومما هو جدير بالذكر أن الشاعر الإنجليزي بايرون ولد في نفس العام الذي ولد فيه شوبنهور وكان حظه مع أمه مثل حظ شوبنهور تمامًا. وقد انتهى بهما الأمر إلى نفس القدر من التشاؤم، فمن يُحرم من حب الأم وحنانها لا يعرف سوى الكراهية.

وفي نفس الوقت واصل شوبنهور تدريباته الرياضية ودراسته الجامعية، وسخر من الحب والعالم أجمع وألقى بكل شيء وراء ظهره. وقد طبعت حياته بهذا وصبغت بها فلسفته وأخلاقه. حيث سيطر التشاؤم والشك على حياته. كان يخاف من الناس ويتوقع منهم الشر والغدر. وكان يعيش بمفرده بلا زوجة أو ابن أو صديق، ويغلق الأبواب ليلاً ويملأ مسدسه بالرصاص تحسبًا لمجيء أي لص. وكان يضع المسدس بجانبه وهو نائم. كما كان شديد الحساسية للضوضاء ولا يتحملها مطلقًا. فقال عنها: "تسببت لي الضجة

والضوضاء في عذاب يومي." وكان لديه شعور داخلي بالعظمة بالرغم من عدم اعتراف من حوله بتلك العظمة.

وحتى عندما تأثر "شوبنهور" بحماسة الرجال في حالة الحرب، وبعد أن اشترى بعض الأسلحة للاشتراك في الحرب ضد نابليون، تراجع في الوقت المناسب. فقد أقنع نفسه بأن نابليون مثله مثل باقي الناس، يريد المزيد مما يمكن أن يحصل عليه من الحياة. وبدلاً من التوجه للحرب، توجه إلى الريف واستعد للحصول على درجة الدكتوراه.

وبعد الانتهاء من إعداد رسالة الدكتوراه وكانت بعنوان "العقل"، انصرف شوبنهور بكل ما أوتي من قوة لإعداد كتاب أطلق عليه عنوان "العالم كإرادة وفكرة". وعندما انتهى منه وأرسله إلى الناشر، علق عليه بقوله: "هذا الكتاب سيكون في المستقبل مصدرًا لمائة كتاب." كان شوبنهور واثقًا من أن كتابه هذا يحل جميع مشكلات الفلسفة.

ورغم كل ذلك لم يلق الكتاب رواجًا يذكر. لقد كان العالم الأوروبي فقيرًا ومرهقًا بالحرب ولا رغبة عنده في القراءة. وبعد ١٦ عامًا من طباعة الكتاب علم شوبنهور أن نسخ كتابه بيعت بالجملة على أنها ورق تالف يستخدم في لف البضائع. وقد تحدث عن ذلك بحرقة وتأثر في أحد مقالاته.

وكان شوبنهور قد تفرغ تمامًا لذلك الكتاب، ويعتبر كل ما كتبه بعد ذلك تعليقًا على هذا الكتاب. وبذلك تحول إلى شارح ومفسر ومعلق على كتابه واعتبره كتاب حياته.

وفي عام ١٨٤١م أصدر شوبنهور كتابًا بعنوان "مشكلة الأخلاق الأساسية" وفي عام ١٨٥١م ظهر له كتابان كبيران وتمت ترجمتهما إلى الإنجليزية. ولم ينل شوبنهور أجرًا عنهما سوى عشر نسخ من كل كتاب، وهذا في حد ذاته زاد من تشاؤمه وعبوسه.

لم تتمكن ظروفه اليومية أو الأحداث المحيطة به من إخراجه من عزلته وكآبته، حتى لاحت فرصة ليحاضر في جامعة برلين. وقد حدث ذلك في عام ١٨٢٣م. فقد دعوه للقدوم إلى الجامعة وعرض فلسفته على طلابها كمحاضر خاص. وقد تعمد شوبنهور جعل محاضراته في نفس مواعيد محاضرات هيجل، وذلك طمعًا في أن يقارن

الطلاب بينه وبين هيجل فيقبلون على محاضراته. لكنه أخطأ التقدير، فقد وجد نفسه يحاضر أمام مقاعد خالية.

انتقم شوبنهور من هيجل بالتشهير به، إلا أن الكوليرا اجتاحت برلين في عام ١٨٣١م، فهربا وتركا المدينة خوفًا من الإصابة. إلا أن هيجل عاد مبكرًا قبل أن يتم تطهير المدينة من المرض، فأصيب بها ومات بعد عودته إلى برلين بأيام قليلة. لكن شوبنهور وصل إلى فرانكفورت، وهناك أمضى باقي حياته ومات وهو في الثانية والسبعين.

تجنب شوبنهور الوجود في دائرة المتفائلين بأي حال. كما رفض تسخير قلمه لكسب المال مقتديًا بسقراط الذي كان يرفض تقاضي أجر من طلابه. وقد ورث جزءًا من مصنع عن أبيه، فتصرف باعتدال وأنفق من دخل ذلك الميراث على نفسه، ويبدو أنه ورث حسن التصرف التجاري عن والده. فحين تعثر المصنع رفض استلام ٧٠٪ من قيمة الأسهم كما فعل باقي المساهمين. حيث تمكن بذلك التصرف من الحصول على كامل قيمة الأسهم فيما بعد. وقد مكنه حسن التصرف هذا من استئجار غرفتين في نُزل أقام فيه لمدة ٣٠ عامًا.

وكان شوبنهور يتناول طعامه في مطعم يتردد عليه الإنجليز. وفي كل مرة كان يضع أمامه على المائدة ماركًا ذهبيًا، ثم يعيده إلى جيبه قبل أن يغادر المطعم. استفز هذا التصرف نادل المطعم وسأله عنه فقال: "لقد أخذت عهدًا على نفسي بوضع هذا المارك الذهبي في صندوق للتبرع للفقراء إن جئت إلى هنا وسمعت الإنجليز لا يتحدثون عن شيء آخر سوى الكلاب والخيل والنساء." وهو يعيد المارك إلى جيبه لأن الإنجليز لا يتحدثون سوى في موضوعات ثلاثة فقط.

تجاهلت الجامعات شوبنهور وكتبه، وهذا يؤكد كلامه بأن الفلسفة تنتصر خارج جدران الهيئات العلمية. وقد رأى نيتشه أنه لا يوجد من أساء إلى أساتذة الجامعة الألمان أكثر من شوبنهور بسبب مخالفته لهم. لكن شوبنهور كان على ثقة من اعتراف الناس به، وقد تحقق توقعه فيما بعد. حيث أقبل المثقفون على اختلاف مشاربهم على قراءة كتبه فيما بعد.

لم يكن شوبنهور قد بلغ أرذل العمر حينما تمتع بشعبية وشهرة كبيرة. فأخذ يقرأ باهتمام كل ما كُتب عنه من مقالات . كما طلب من أصدقائه أن يرسلوا إليه كل

ما تنشره الصحف من تعليقات عنه وعن أعماله. وكان يدفع لهم تكلفة إرسال تلك المقالات له بالبريد.

وفي يوم من الأيام، أرسل له فاجنر[1] قطعة موسيقية من موسيقاه مرفقة مع كلمة تقدير لفلسفته المبدعة. وهكذا أوشك الفيلسوف المتشائم على أن يكون متفائلاً وهو في سن الشيخوخة، وبدأ يعزف على الجيتار كل يوم بعد تناول الغداء. كما جاءه الناس من جميع أنحاء العالم لرؤيته. وعندما احتفل بعيد ميلاده السبعين جاءته التهاني من جميع أنحاء العالم.

لكن أجله كان لم يحن بعد، فقد عاش عامين بعد ذلك، وكان وافر الصحة ولم يشك من شيء إلا أنه مات وهو يتناول طعام الإفطار. فقد لاحظت صاحبة النُزل أنه لا يتحرك لمدة طويلة بعد أن انتهى من طعامه. ولما اقتربت منه وجدته ميتًا.

• ٣- العالم كفكرة:

أكثر ما يثير دهشة القارئ في كتاب "العالم كإرادة وفكرة" هو سهولة أسلوبه وسرعة فهمه. فقد خلا من المصطلحات المعقدة التي نجدها في كتب كانط، كما خلا من التشويش الموجود عند هيجل وكذلك لم يستخدم المصطلحات الهندسية مثل سبينوزا. فكل ما ورد في كتاب شوبنهور مرتب ومنظم بشدة. وهو يرى أن العالم إرادة. وبالتالي فإن الحياة كفاح وبؤس وشقاء.

وقد امتاز كتاب شوبنهور بأمانة البحث والدقة وعدم التساهل. كما كان مليئًا بالأمثلة التي توضح ما جاء به من أفكار. كما ابتعد شوبنهور أيضًا عن الغموض الذي توشح به سابقوه.

لكن ما السبب في عدم رواج ذلك الكتاب؟ قد يكون السبب الرئيسي هو أن شوبنهور هاجم فيه من يمكن أن يروجوا للكتاب مثل أساتذة الجامعات. فقد كان لهيجل في عام ١٨١٨م مكانة لا يشاركه فيها أحد في عالم الفلسفة. ومع ذلك لم يعبأ به شوبنهور وأصر على مهاجمته. وفي مقدمة الطبعة الثانية من الكتاب قال:

---

(١) - ريشارد فاجنر (١٨١٣-١٨٨٣م) كان مؤلفًا موسيقيًا وكاتبًا مسرحيًا ألمانيًا، ولد في لايبزغ في ألمانيا، وتوفى في البندقية، إيطاليا. وهو أصغر أخوته التسعة. وقد أثارت موسيقاه جدلاً واسعًا ما بين محب لها وشاهد بعبقريته، ومهاجم لها ومدع بأنها تسبب الصداع. (المترجم)

"لا يوجد ما يسيء إلى الفلسفة أكثر من اتخاذها وسيلة لكسب الرزق وتحقيق مطامع وأهداف سياسية. لقد فعل ذلك كثيرون وعملوا وفقًا للمثل القائل من يأكل مال السلطان يحارب بسيفه."

إنها كلمات نبيلة ممزوجة بمرارة الاستياء والضيق. وكان شوبنهور لا يرى أي إنجاز تم تحقيقه في عالم الفلسفة في الفترة ما بين كانط وبينه. وهذا مما زاد من يأسه وإحباطه.

لكن في الكتاب نفسه، لا نجد أي شيء يوحي بالتواضع. فهو يبدأ الكتاب بقوله: "العالم فكرة". مشيرًا في ذلك إلى مقال ذهب إليه كانط من أننا نتعرف على العالم الخارجي من خلال أحاسيسنا وأفكارنا. ثم أتبع ذلك بعرض واضح للمذهب المثالي. وهو عرض قوي إلا أنه يعتبر أضعف ما جاء في الكتاب. لذلك فكان من الأولى بشوبنهور أن يأتي بهذا العرض في آخر الكتاب وليس في أوله. وهكذا ظل شوبنهور مجهولاً طوال جيل كامل من الزمان لأنه أخفى أفكاره خلف ٢٠٠ صفحة عرض فيها المذهب المثالي. وأهم ما ورد في الفصل الأول من الكتاب هو الهجوم على المذهب المادي. حيث تساءل قائلاً: "كيف يمكننا أن نفسر العقل بأنه مادة ما دمنا لا نعرف المادة إلا عن طريق العقل ؟"

وهو يرى باستحالة الوصول إلى حلول لمشكلات الميتافيزيقا بالبحث في المادة أولاً ثم الانتقال إلى البحث في الفكر. لكن يجب علينا أن نبدأ بما هو قريب منا أولاً وهو أنفسنا.

• ٤- العالم كإرادة:

إرادة الحياة :

اتفق جميع العلماء على أن جوهر العقل هو الفكر والإدراك، والإنسان بالنسبة لهم حيوان عاقل. وعلينا أن نتخلى عن هذا الخطأ القديم المتوارث وننحيه جانبًا. فالإدراك ما هو إلا قشرة خارجية للعقل، ونحن لا نعلم أي شيء عما في الداخل، تمامًا مثلما أننا لا نعلم ما في باطن الأرض تحت القشرة الأرضية. وذلك لأن ما تحت العقل الواعي هو إرادة واعية أو غير واعية. إنها إرادة ذات قوة آمرة. وقد يبدو العقل كما لو كان قائدًا للإرادة. وما ذلك إلا مثلما يقود العبد سيده الأعمى. لكن الإرادة مثل الأعمى القوي

الذي يحمل الأعرج المبصر. فنحن لا نريد شيئًا وجدنا له أسبابًا وجيهة، لكننا نجد أسبابًا للشيء الذي نريده. وهكذا يسمي شوبنهور الإنسان بـــ"حيوان ميتافيزيقي". لأن للحيوان رغبة لا تخضع للميتافيزيقا، أما الإنسان فتسوقه إرادته وليس عقله.

فإن تأملنا ما يقوم به الناس لتأمين طعام لأسرهم، فهل يمكن أن يكون ذلك من أعمال العقل؟ بالطبع لا. فالناس تريد الحياة وتفعل ما يمكنها من ذلك بإرادتها ولا دخل للعقل هنا. كما أن اللغة العامية تفضل القلب على العقل، وهم يعرفون أن الإرادة الطيبة أعمق من العقل المحض الخالص.

وحتى جسم الإنسان نفسه ناتج عن الإرادة، فالدم يجري في الأوعية والأوردة والشرايين من أجل هدف محدد. والمخ والجهاز الهضمي والجهاز الدوري ما هي إلا وسائل يحقق بها جسم الإنسان إرادته.

كما أن الإرادة وحركة الجسم ليسا شيئين مختلفين، كما أنهما لا تجمعهما رابطة سببية، بل هما شيء واحد. ولذلك توفق أجزاء الجسم الرغبات الأساسية توافقًا تامًا. فالأسنان والحلق والمعدة تجسيد كامل للجوع. كما أن أعضاء التناسل تمثل الرغبة الجنسية وتجسدها. ويعمل الجهاز العصبي مثل كابل الكهرباء، إلا أنه يوصل إشارات بما يريده الجسد داخليًا وخارجيًا.

والعقل يتعب، ويحتاج إلى راحة ونوم. لكن الإرادة لا تتعب ولا تحتاج إلى نوم أو راحة أو تغذية.

إذن فالإرادة هي جوهر الإنسان، فما المانع أن تكون جوهر الحياة في جميع أشكالها؟ وأن تكون أيضًا جوهر الجماد؟ ألا يمكن أن تكون الإرادة هي ما بحثنا عنه طويلاً ويئسنا من الوصول إليه؟ ألا يمكن أن تكون الإرادة هي الكينونة الخفية لكل شيء؟

والآن يمكننا تفسير العالم الخارجي بالإرادة. وفي البداية لابد أن نرفض ما قاله آخرون من أن الإرادة شكل من القوة. وعلينا أن نصحح القول فنقول: "القوة شكل من أشكال الإرادة." أما ما يقوله هيوم عن السببية، فنرد عليه بأن السببية هي الإرادة. فالإرادة هي السبب العام الموجود في أنفسنا. كما أنها السبب العام الموجود في الأشياء. وإن لم ندرك أن السبب (العلة) يعني الإرادة فسيظل غامضًا ولا معنى له.

كما أننا نجد نفس الشيء في حياة النبات، فلا دور للعقل في حياة النبات. إلا أن هناك إرادة. وإرادة النبات ثابتة وهي تكافح بقوة شديدة وملحة لا تتغير. ومع ذلك لا يمكن أن نسميها إلا بـ"الإرادة". وقد كان أرسطو على حق عندما قال إن هناك قوة فيما يشكل صورة النبات والحيوان والإنسان والكواكب.

والإرادة بالطبع هي إرادة الحياة، إرادة الوصول إلى مستوى أعلى من الحياة. فالحياة عزيزة جدًا عند جميع المخلوقات. فالبذور الجافة تحتفظ بالحياة في داخلها لمدة ثلاثة آلاف عام. وعندما تتوفر الظروف المناسبة تنمو تلك البذور وتترعرع وتتحول إلى نبات أو شجرة. كما أن هناك من الحفريات ما يدل على اختفاء بعض الزواحف داخل الأحجار الجيرية انتظارًا لعودة الحياة. وهذا يعني أن الإرادة ما هي إلا إرادة الحياة وعدوها الأول هو الموت.

إرادة التناسل:

كما أننا نواجه الموت أيضًا بالتناسل، فهناك من يضحي بنفسه من أجل ذلك التناسل. فالعنكبوت مثلاً تلتهمه أنثاه بعد التلقيح. كما يحدث نفس الشيء مع بعض أنواع الحشرات، ومنها من يقضي حياته في جمع الطعام لأجيال لن يراها أبدًا. إلى أن نصل إلى الإنسان وهو أرقى الكائنات، فنجده يبذل كل ما في وسعه لضمان حياة كريمة لطعام وملبس وتعليم أولاده. فالنسل إذن هو أقوى الغرائز والهدف الأسمى عند كل كائن حي. كما أن التناسل نوع من مواجهة الموت ببقاء النوع، فإن لم يكن الإنسان قادرًا على البقاء وذلك لأنه سيواجه الموت لا محالة، فإن أبناءه وأحفاده موجودون من بعده. لذلك فكل الناس تتزوج وتتناسل. حتى الفلاسفة تركوا لنا أبناء.

ولذلك فإن أعضاء التناسل هي أساس للحفاظ على الحياة وهي التي تجعل حياتنا متواصلة بلا نهاية. ومن أجل ذلك السبب عبدها اليونان والهندوس. وقد ذكر "هوزيود وبارمنيدس" أن العلاقة بين الرجل والمرأة هي الحقيقة المركزية وراء جميع أعمالنا. فكل إنسان يبحث عن شريكة لحياته، وكل وليف يبحث عن وليفه، وذلك من أجل البقاء والتناسل. فالرجل ضعيف البنية يبحث عن امرأة قوية البنية. وكل منا يرى

obeikan.com

ما ينقصه جميلاً في الآخرين. كما أن كل فرد يفقد جاذبيته للجنس الآخر إن ابتعد عن الجنس الآخر في أنسب فترات التناسل في حياته. فللشباب جاذبية، ولا جاذبية للجمال بدون شباب.

وأشقى حالات الزواج هو الزواج الذي يتم على أساس الحب، والسبب في ذلك هو أن هدف الزواج بقاء النوع وليس الحب وممارسة الجنس هما ما يحقق اللذة للفرد. كما أن نصف مشكلات الزواج ناتجة عن التفكير في أن الهدف من الزواج هو اللذة والألفة وعدم التفكير فيه كنظام للحفاظ على النوع. وأسعد أنواع الزيجات هو ما يتم تحت إشراف والدي الزوج والزوجة، وهو أسعد من الزواج القائم على الحب. وعلى الرغم من ذلك لا يمكننا أن نلوم من يلبي نداء الحب ويتزوج بهذه الطريقة. والمرأة التي تلبي نداء الحب وتخالف رأي أبويها، تلبي نداء الطبيعة، فالحب أفضل وسيلة لتحسين النسل.

كما يرى شوبنهور أن الحب خديعة تدبرها الطبيعة للمحبين، وذلك لتحقيق الغرض الأسمى وهو الزواج. لكن الزواج يقضي على الحب ولا يسعد بالزواج سوى الفلاسفة. لكنهم لا يتزوجون.

وهكذا يَظهر مرة أخرى خضوع الإنسان لنوعه، واعترافه بأنه مجرد أداة لممارسة الجنس من أجل استمرار بقاء النوع، ثم يتضح ذلك الخضوع للمرة الثانية عندما يهتم الفرد بشدة بحيوية وقدرات أعضائه التناسلية.

وهكذا يجب علينا أن نعتبر أن الغريزة الجنسية ما هي إلا شجرة النوع التي تنمو عليها حياة الإنسان. وهذا هو السبب في قوة الغريزة الجنسية التي تنبع من أعماق طبيعة الإنسان. فإن قمنا باستئصال خصيتي رجل سيعيش بقية حياته واهنا وذابلا وتتراجع قواه العقلية والجسدية. وبالعكس فإن الإفراط في ممارسة الجنس في أي سن يقصر العمر.

الزمان والمكان:

ثم انتقل سبينوزا إلى الحديث عن الزمان والمكان، فيرى أنهما أمران يجعلانا نشعر بأننا كائنات منفصلة. لأنهما ليسا سوى حجاب وهمي يخفي عنا وحدة الأشياء. إذ ليس في الحقيقة إلا نوع واحد وحياة واحدة وإرادة واحدة. وجوهر الفلسفة هو أن الفرد

ما هو إلا ظاهرة وأن دوام الصورة يحدث من خلال تغير المادة المستمر. لذلك فشعار التاريخ: كلما تغيرت الأشياء أكثر، كلما بقيت كما هي أكثر.

كما رأى سبينوزا أن التاريخ ما هو إلا خطوات تؤدي إلى العصر العظيم الذي نعيش فيه. أما الحديث عن تقدم العالم فليس سوى وهم. فقد سبق أن تحدث الحكماء عن الحكمة على مر العصور وتشابهت أعمال الحمقى في كل العصور أيضًا. وسوف يستمر ذلك في المستقبل أيضًا.

الجبرية مرة أخرى:

من كل ما سبق يمكننا أن نستخلص معنى جديدًا للجبرية التي لا مفر منها. إنها تلك الجبرية التي يقول عنها سبينوزا: أنه لو كان للحجر الذي يلقى في الماء إرادة لاعتقد أنه يتحرك بإرادته.

• ٥- شرور العالم:

إن كان عالمنا هو إرادة في حقيقة الأمر، فلابد أن يكون مليئًا بالشرور والألم والعذاب. وإن كانت الإرادة تعني الرغبة، فهذا يعني طلب المزيد دائمًا. وعند إشباع رغبة تطل من خلفها رغبات تلح في إشباعها. فالرغبات بلا نهاية، ولا يمكن للإنسان أن يلبي جميع رغباته مهما فعل. فتلبية الرغبة مثل إعطاء الفقير صدقة توفر له قوت يومه، أي أنه يلبي رغباته لفترة قصيرة ثم يواجه الجوع في صباح اليوم التالي مرة أخرى.

فإذا كنا نحن خاضعون لرغباتنا وآمالنا ومخاوفنا. ومادامت لنا إرادة، فإننا لن نبلغ سعادة دائمة أو سلامًا مطلقًا مع النفس. فتحقيق الرغبات لا يتبعه قناعة. ولذلك فكل منا يحمل في داخله متناقضات هدامة وخطيرة، وهي تنتج رغبة شديدة تريد إشباعها. وهذه الرغبة تتجدد كل يوم إلى ما لا نهاية.

لذلك فالشعور بالألم عند كل فرد أمر لا مفر منه. وما يحدد مقدار هذا الألم هو قدرات الفرد وطبيعة تحمله. لكننا نلحظ أنه عندما نزيح عن صدرنا همًّا كبيرًا، يحل محله هم آخر جديد. وقد يكون أمرًا موجودًا من قبل، إلا أنه ينتقل إلى دائرة الاهتمام عندما يتخلص الفرد من هم أكبر منه.

الحياة شرور:

وهكذا فإن في الحياة شرور، وذلك لأن دافعها الأساسي هو الألم. وما اللذة سوى الامتناع عن الألم. يقول أرسطو: "الحكيم لا يبحث عن اللذة، ولكن يبحث عن التحرر من الألم والهموم."

وهكذا فإن القناعة والرضى أو ما نسميه عادة بالسعادة ليس إلا أمرًا سلبيًا في حقيقته وجوهره هو المبهج فقط. ونحن لا نشعر بما لدينا من نعم ولا نعرف قدرها الحقيقي. إننا نعتبرها أمورًا عادية، ولا نشعر بقيمة تلك النعم إلا عندما نفقدها.

والحياة شر لأن الإنسان لا يكاد يشعر بالراحة من الألم والحاجة حتى يتملكه شعور بالملل والتضجر. ثم يبدأ في مواجهة الجديد من الآلام. وإن تحققت أحلام الاشتراكيين في إنشاء المدينة الفاضلة، فسيظل هناك في هذه المدينة من الشرور ما لا يحصى. فبعض الشرور ضروري للحياة مثل الكفاح أو محاربة العدو الغاصب. وهكذا فإن الحياة يوم لك ويوم عليك. والحياة بها الشيء وضده دائمًا، فكلما حققنا نجاحًا كلما زاد ما نشعر به من ملل. كما أن الحاجة والشعور بالملل هما سياط تضرب ظهورنا بصفة دائمة.

وكلما ارتقى الإنسان زادت آلامه، كما أن زيادة علمه ومعرفته تساعده على حل مشكلاته والتغلب على آلامه.

أما في النبات، فهو لا يشعر بالألم. وذلك لأن إحساس النبات غير مكتمل. لكن أبسط أنواع الحيوانات تشعر بقدر بسيط جدًا من الألم. كما أن قدرة الحشرات على التألم قليلة جدًا. وهكذا يزداد الشعور بالألم كلما ارتقى نوع الحيوان. وآكلات الأعشاب من أعلى أنواع الحيوانات شعورًا بالألم. وهكذا نرى أن الإنسان هو أرقى الكائنات من حيث الشعور بالألم. وهذا يعني أن الألم يزيد كلما زاد العقل، أي بمقدار اقتراب المعرفة من الاكتمال. ويزداد شعور الإنسان بالألم كلما زاد ما لديه من علم ومعرفة واشتد ذكاؤه. لذلك فالعبقري الموهوب أكثر من يعاني من الآلام.

كما أن ذاكرة الإنسان وبُعد نظره يزيدان من آلامه أيضًا. وذلك لأن القسم الأكبر من آلامنا يكمن في تأمل الماضي أو التفكير فيما يمكن أن يحدث في المستقبل. والألم

في حد ذاته قصير المدى، والإنسان يتألم من التفكير في الموت أكثر من ألم الموت ذاته.

وأخيرًا، فالحياة شرور لأنها حرب. فأينما كنت ستجد هناك صراع يدور حولك. صراع هنا ونزاع ومنافسة هناك، وهزيمة ونصر وانتحار. فكل منا يقاتل من أجل الفوز بالمادة والأرض والسيطرة.

ومثال ذلك ما يرويه لنا "يونجهان" حول ما رآه في جاوا. حيث رأى سهلاً مفروشًا بالعظام والهياكل العظمية على مرمى البصر. فظن أنها كانت ساحة قتال. لكن الحقيقة أنها سلاحف ضخمة خرجت من البحر لتضع البيض، فهاجمتها الكلاب وقلبتها على ظهورها ومزقت الأغشية الرقيقة الموجود فوق بطونها وأكلتها وهي حية. وكثيرًا ما تنقض نمور على تلك الكلاب، وتأكلها بوحشية.

وهكذا، فإن تأملنا الحياة بصفة عامة سنجدها مؤلمة جدًا. ولو رأى الإنسان كل ما سيتعرض له من آلام وبؤس وشقاء، فلن يشعر إلا بالرعب. وبالمثل، إن أخذنا من هو شديد التفاؤل ليرى المستشفيات ومن فيها من مرضى ومقعدين والسجون ومن فيها من معتقلين ومعذبين وغرف للتعذيب، ثم إلى بيوت العبيد البائسة وميادين القتال وساحات تنفيذ أحكام الإعدام وأحياء الفقراء والبائسين، لعلم ذلك المتفائل حق العلم طبيعة عالمنا الحقيقية وما فيها من آلام.

ونحن كبشر نواجه الألم والتعاسة على أي حال. فنحن نصاب بالتعاسة إن تزوجنا، ونصاب بها إن امتنعنا عن الزواج. كما أننا تعساء في وحدتنا وانعزالنا، وتعساء حين نختلط بالناس. إننا كالقنافذ نشعر بالدفء إن اقتربنا ونتألم إن التصقنا ببعضنا. ولذلك فإن استعرضنا حياة أي فرد وحددنا أبرز ما فيها من أحداث، لعلمنا أننا نعيش مأساة في الحقيقة. وإن تداركنا الأمر أكثر وفكرنا في التفاصيل لوجدناها ملهاة مضحكة.

تأمل هذه الحياة:

يدخل الصبي الصغير إلى مصنع أو معمل أو محلج للعمل وهو في سن صغيرة. ويذهب إلى مكان عمله كل يوم، ويفعل نفس الأعمال الروتينية بدقة كل يوم ويكررها دون ملل. يبدأ عمله بعشر ساعات في اليوم ثم تزيد إلى اثني عشر بعد فترة. وتصل ساعات العمل في النهاية إلى ١٤ ساعة يوميًا. وهذا هو مصير ملايين البشر، حياة

روتينية مملة. يشترى هؤلاء الفقراء أنفاسهم اليومية بأغلى الأثمان. ونحن لا ندري أن قشرة الأرض التي تبدو هادئة قد تكون جبارة إذا ما ثارت. وما زلزال لشبونة وهاييتي واختفاء مدينة "بومبي[1]" إلا أمثلة لما يمكن أن يحدث في المستقبل.

وأمام كل تلك الكوارث، ألا يعتبر التفاؤل نوعًا من أنواع السخرية مما يعانيه البشر. إن ما يلاقيه الإنسان من متاعب تدل على أن الحياة عمل فاشل لا يغطي نفقاته.

الجهل والسعادة:

وحتى يصبح الإنسان سعيدًا، يجب أن يكون جاهلا وهو شاب، حيث لا يعرف ما سيواجهه في المستقبل. ثم بعد ذلك يعاني من رغباته المتعددة المضنية. فيعلم حينذاك فقط أن من يحاول إشباع رغباته مثل من يحاول دق مسمار في الماء أو من يحاول ملء برميل مثقوب بالماء.

والشباب يعيش في مرح وسعادة لأنه لا يشعر بالموت ولا يفكر فيه. وكلما زاد عمر الإنسان اقترب من الموت وشعر به تمامًا مثلما يحدث لمن حكم عليه بالإعدام وهو يساق إلى حبل المشنقة، كل خطوة يخطوها تقربه من الموت. ولكي يعلم الإنسان أن الحياة قصيرة فعلاً، فلابد له أن يعيش حياة طويلة.

فالإنسان منذ أن يبدأ العمل وحتى سن السادسة والثلاثين يشبه من يعيش على الإنفاق من أرباح أمواله. ويعوض في الغد ما ينفقه اليوم. ولكن بعد سن السادسة والثلاثين، يتحول الموقف إلى رجل بدأ ينفق في أصول رأس ماله. وما يصيب الإنسان من فزع بسبب تلك المصيبة يزيد من حبه للمال كلما كبر في السن.

أسعد الأوقات:

وأسعد أوقات الحياة هي ما ابتعد عن سن الشباب. وقد صدق أفلاطون عندما قال في بداية كتاب الجمهورية "من الأفضل أن ينال ذوي السن المتقدمة أفضل الجزاء." لكننا يجب ألا ننسى أن انقضاء سنوات الشباب يأخذ معه حيوية الشباب وجمال أيامه.

---

(١) - «بومبي»: مدينة إيطالية قديمة أنشئت قبل الميلاد بسبعمائة عام، وأخفاها بركان ثار فجأة في عام ٧٩م خلال ثوان معدودة، وقد طُمر جميع سكانها (١١٠٠٠ نسمة) تحت أطنان من الحمم. ويقال إن «بومبي» كانت بلدة تفتخر بممارسة الدعارة والشذوذ وكان اختفاء هذه المدينة من الوجود آية من آيات الله على الأرض، فقد كان من الطبيعي أن توجد لوحات العارية ومخلة بالآداب على جدران بيوت أهلها دون أي خجل من وجود أطفال صغار في البيت، فقد كانت تلك هي التجارة الرائجة عندهم والعياذ بالله. (المترجم)

وفي النهاية يواجه الجميع الموت، ففي الوقت الذي يبدأ فيه الإنسان التحول إلى الحكمة والتفكير الجيد، يبدأ جسمه في التراجع وتصيبه العلل. فإن أمهلنا الموت طال عمرنا، فما ذلك إلا لعب بنا كما يلهو القط بالفأر قبل أن ينقض عليه. ونحن جميعًا نقاوم الموت ونحاول دفعه بعيدًا عنا.

بداية الفلسفة :

وخشية الموت هي بداية الفلسفة وهي السبب الرئيسي للدين. لذلك فإنه يؤدي إلى وجود الكثير من الفلسفات والديانات التي لا تُحصى. وما يسيطر على الناس من إيمان بالخلود ما هو إلا دليل قاطع على خوفهم من الموت.

وإن كان الدين وسيلة للهرب من الموت، فالجنون وسيلة للهرب من الألم. حيث يوقف الإنسان ما يربطه بما حوله من خيوط يمكن أن تنقذه من آلامه. كما أننا نتغلب على المخاوف بنسيانها فقط.

أما المهرب الأخير، فهو الانتحار، حيث يتغلب الفكر والخيال على الغريزة. وهذا أمر يدعو إلى الدهشة. ويقال إن أحدهم تمكن من وضع حد لحياته والموت منتحرًا لأنه توقف عن التنفس. هذا ليس انتصارًا على الحياة بل على الإرادة. إنه مجرد انتصار فردي. وإن كان هناك انتحار واحد مقصود ومتعمد، فهناك ألف من مواليد الصدفة غير المقصودة.

كما أن البؤس والكفاح يبقيان بعد موت الإنسان، ولابد أن يبقيا مادامت هناك إرادة تستعبد الإنسان وتسيطر عليه. لذلك يستحيل القضاء على أمراض الحياة إلا إذا خضعت الإرادة تمامًا للمعرفة والعقل.

● 6- حكمة الحياة:

الفلسفة :

يظن أراذل الناس أنهم قادرون على إرضاء إرادتهم وإشباعها تمامًا باكتناز المال وجمع الثروات. ويظنون أن صاحب المال يمكنه إرضاء جميع رغباته. وفي الغالب يعاب على الناس ذلك السعي وراء المال واكتنازه وحبهم له. رغم أن هذا الحب شيء عادي وطبيعي. فكل شيء سوى المال يمكن أن يشبع رغبة واحدة، بينما يستطيع

المال إشباع كل الرغبات. ومع كل ذلك، فإن كل ما نفعله للحصول على مال كثير لا قيمة له إلا إن علمنا كيف نحول ذلك المال إلى سعادة. وهذا فن يحتاج إلى علم وحكمة.

وهكذا نجد أن إقبال الناس على جمع المال أكبر ألف مرة من إقبالهم على تثقيف أنفسهم. وذلك بالرغم من أن سعادة الإنسان تتوقف على ثقافته أكثر من توقفها على ماله.

فمن تكون قدراته العقلية محدودة يندفع من مكان إلى آخر بحثًا عن إشباع الملذات والرغبات وملء ما لديه من فراغ وحاجات حسية. وأخيرًا يستسلم للملل الذي يصيب الأثرياء والكسالى.

وهكذا يتضح لنا أن الثروة ليست هي الطريق الصحيح للحكمة. بل تتمثل حكمة الإنسان في أمرين هما:

- كفاح عنيف ضد الإرادة التي مركزها الجهاز التناسلي.
- الاستجابة للمعرفة الخالصة التي مركزها المخ.

ومن العجيب أن تتمكن المعرفة أحيانًا من السيطرة على الإرادة رغم أنها وليدتها.

وسيطرة العقل على الإرادة تفسح الطريق أمامنا للرقي والتقدم. كما أنها تعدل الرغبات وتُسكِنُها. والفلسفة الجبرية هذه تعترف بأن كل شيء نتيجة حتمية لما سبقه من أشياء. فنحن نستطيع التغلب على تسع مشكلات من بين كل عشر مشكلات نواجهها إن أدركنا أسبابها جيدًا وعرفنا طبيعتها وضرورة حدوثها.

وتعرض عقولنا المستمر لأفكار غيرنا لابد أن يكبح انطلاقها، وقد يشل تفكيرنا. كما أن ميل معظم العلماء إلى القراءة هو نوع من الاستفادة من الفراغ. فقد تؤدي عقولهم المجدبة إلى استخدامهم لأفكار الآخرين رغمًا عنهم. لذلك فمن الخطر أن نقرأ عن موضوع أولاً قبل أن نفكر فيه. فأنت عندما تقرأ ما كتبه غيرك تدع غيرك يفكر لك. ولا نكون مجددين حينئذ بل مرددين لما قاله غيرنا. فإذا كانت ثقافة الإنسان وتأملاته واسعة لكن خبرته في الحياة قليلة، يصبح مثل الكتاب الذي تحتوي كل صفحة منه على سطرين في المتن وثلاثين سطرًا من الشرح والتعليق.

لذلك فأول ما نقوله لغيرنا من نصائح هو الاستفادة من خبرات الحياة أولاً قبل الكتب، ثم قراءة الكتب نفسها قبل قراءة ما كتب عنها من نقد وتعليقات. نقرأ ما كتبه المؤلفون قبل أن نقرأ ما كتبه المعلقون والنقاد. فقد يكون هناك كتاب واحد كتبه عبقري يساوي ألف كتاب كتبه المعلقون.

والسبيل الوحيد لإنقاذ الإنسان من رغبات الإرادة التي لا تنتهي هو قراءة ما كتبه العظماء في جميع العصور ومن جميع الدول. فهذا يرتقي بالعقل فوق أخطاء الإرادة ومشكلاتها. أما معظم الناس، فلن يرتقوا إلى ذلك المستوى أبدًا. ومن هنا ينشأ بؤسهم وشقائهم.

العبقرية :

العبقرية هي أعلى صورة من صور المعرفة المجردة من الإرادة. كما أن أحقر أنواع الحياة هي تلك الحياة الناتجة عن إرادة فقط دون معرفة. والإنسان بصفة عامة تغلب عليه الإرادة وليست المعرفة. أما العبقري فتغلب عنده المعرفة وليست الإرادة. وهذا يؤدي إلى انتقال قوة الإنسان من النشاط التناسلي إلى النشاط العقلي. وأول الصفات الملحوظة للعبقرية هي السيطرة غير المألوفة على الأعصاب والحساسية، وكذلك ضعف القوة الجنسية. ومن هنا يكون العداء بين العبقري والمرأة. لأن المرأة تمثل التناسل وخضوع العقل لإرادة الحياة. وقد يكون هناك من النساء من لها موهبة كبرى، إلا أنها لن تبلغ العبقرية. وذلك لأنهن ذاتيات تتركز نظراتهن على الأمور الذاتية الشخصية. ولا يردن سوى تحقيق رغباتهن الشخصية.

أما العبقرية، فهي النظرة السامية المتجردة من الأنانية ومن المصالح الشخصية تمامًا. وهي القوة التي تمكن الفرد من التخلي عن مصالحه ورغباته وأهدافه. كما أن هذه القوة تجعله منكرًا لذاته لفترة من الوقت حتى يحصل على معرفة واضحة بالعالم المحيط به. ولذلك فإن العبقرية تعني "سيادة المعرفة على الإرادة سيادة واضحة". أما في الأفراد العاديين تسود الإرادة على المعرفة. كما تنشط المعرفة فقط بسبب الإرادة. وبذلك تكون المصالح الشخصية هي الدافع الرئيسي للمعرفة.

وعندما يتحرر العقل من الإرادة يمكنه أن يرى الشيء كما هو. فالعبقرية بيدها مرآة سحرية تُرينا كل ما هو ضروري ومهم، كما توضح لنا العلاقة بين الأشياء. وفي

العبقرية أيضًا يمر الفكر من العاطفة مرور أشعة الشمس بين السحب، وذلك من أجل أن يكشف قلب الأشياء. ثم يسمو الفكر فيتجاوز ما هو فردي وخاص إلى ما هو عام.

العبقري:

وإنكار العبقري لذاته وشخصه يجعله غريبًا في هذا العالم الذي تسوده المصالح الذاتية والرغبات والدوافع الشخصية. لذلك فالعبقري يمتد بصره إلى أمور بعيدة يمكنه رؤيتها، إلا أنه لا يرى الأشياء القريبة.

كما يكون العبقري شاذًّا عن أقرانه وشارد الذهن. يتأمل النجوم وهو يسير في الطريق فيسقط في حفرة لانشغاله بالتفكير. وهذا هو سبب انطواء العبقري وبعده عن الناس. فهو يفكر في أصل الأشياء وعلاقاتها. كما لا توجد صلة مشتركة بين عقل العبقري وعقول الناس المحيطة به. والقاعدة تقول إن الرجل يكون اجتماعيًا بقدر ما هو عامي وضعيف العقل. لكن العبقري لديه ما يعوضه عن هذا الانطواء والوحدة والعزلة. فهو ليس مثل باقي الناس، ولا يحتاج إلى صديق أو مساعد. كما أن حماسه واتقاد ذهنه يمكنانه من نسيان مشاغل الحياة، ويعوضانه عن وحدته ووحشته وهو بين بشر يختلفون عنه تمامًا.

ويتطلب ذلك أن يُجبَر العبقري على العزلة، مما قد يؤدي به في بعض الأوقات إلى الجنون. لذلك نجد أن المتميزين جدًا من أهل الفلسفة والشعر والفن والسياسة كلهم من ذوي المزاج الكئيب أو الجنون الصامت. كما أن الربط المباشر بين الجنون والعبقرية أمر يؤكده تاريخ عظماء الرجال.

ومن الطبيعي ألا تمنح الطبيعة العبقرية إلا لقليل من الناس، وذلك لأنها تعوق سير حياة الإنسان العادية وتقضي على تركيزه في الأمور الخاصة.

• الفن:

مهمة الفن هي تحرير المعرفة من استعباد الإرادة، وكذلك نسيان الذات الفردية ومصالحها المادية. والفن أعظم من العلم لأن العلم يتقدم من خلال التفكير الحذر والصبر على جمع المعلومات، بينما يصل الفن إلى غايته دفعة واحدة. والعلم يشق طريقه بالموهبة، لكن الفن يحتاج إلى عبقرية.

واستمتاعنا بالطبيعة يشبه الشعر والرسم، وهو مستمد من تأمل الشيء والتفكير فيه دون أن يمتزج مع إرادتنا الشخصية. فنهر الراين بالنسبة للفنان عبارة عن سلسلة مختلفة من المناظر الخلابة التي تثير إحساسه وخياله. أما المسافر المنشغل بأمور حياته الخاصة فلا يرى في النهر سوى خط متقاطع مع خطوط أخرى. لكن الفنان المتحرر من مشكلاته الشخصية يتساوى عنده رؤية منظر غروب الشمس من نافذة سواء كانت نافذة قصر منيف أو سجن عفن.

وتتفوق الموسيقى على بقية الفنون من حيث قدرتها على السمو بنا فوق مجرد مقاومة الإرادة. إنها نسخة من الإرادة نفسها، فهي توضح لنا الإرادة في حركتها وطوافها الدائم، ثم عودتها إلى نفسها بعد طواف طويل. لذلك فالموسيقى أقوى تأثيرًا في الناس من بقية الفنون. لأن الفنون تتحدث عن أشياء لا وجود لها بينما تعبر الموسيقى عما هو موجود فعلاً. كما أن الموسيقى تختلف أيضًا عن باقي الفنون في أنها تخاطب الشعور وتؤثر فيه تأثيرًا مباشرًا، وذلك لأنها تخاطب ما هو أرقى من العقل. كما أن الأوزان الموسيقية تجعلها تتناسق مثل تناسق فنون النحت والرسم. لذلك فالموسيقى والفن المعماري متقابلان. فالفن المعماري موسيقى جامدة والتناسق فيه عبارة عن أوزان موسيقية صامتة.

الدين:

أدرك شوبنهور في أيام النضج والتمكن أن نظريته في الفن تصلح أيضًا أن تكون نظرية للدين. وكان قد تلقى في شبابه ثقافة دينية قليلة. لذلك لم يكن ميالاً بطبيعته إلى احترام الكنيسة الموجودة في عصره. وكان يكره رجال اللاهوت ويرى أن الشعب هم المرجع الرئيسي في الأمور الدينية. وقد سمى الدين باسم "ميتافيزيقا الجماهير". إلا أنه وفي السنوات الأخيرة من حياته بدأ يرى أهمية كبرى في ممارسة بعض الشعائر. كما بدأ في الربط بين فلسفته وما ورد في التعاليم المسيحية.

وتحدث شوبنهور أيضًا عن البوذية، ورأى أنها أكثر تعمقًا من المسيحية. حيث تجعل من هدم الإرادة غاية الدين وأساسه. وهو يرى أن البوذية ديانة تدعو إلى إخماد الشهوات الجسدية. وتبشر بسعادة النفس في عالم الخلود حيث الراحة الأبدية.

كما رأى شوبنهور أن الهندوس أشد عمقًا من مفكري أوروبا. فهم يفسرون الدنيا داخليًا ووجدانيًا وليس خارجيًا وعقليًا فقط. وهم يرون أن العقل يقسم كل شيء بينما نجد أن الوجدان يوحد كل شيء.

ويخرج شوبنهور من كل ذلك بحكمة نهائية وهي تتمثل في إخماد الشهوات وهبوط الإنسان إلى أدنى حد من الرغبة والإرادة، وذلك لأن إرادة العالم أقوى من إرادة الفرد، وهذا يجعلنا نذعن لها ونستسلم فورًا.

• ٧- حكمة الموت:

إننا بحاجة إلى ما هو أكثر، إذن يستطيع الإنسان أن يحقق السعادة بفضل "النرفانا" وهي نظرية عند الهندوس ترى أننا يمكن أن نحقق سعادة تامة إن كبتنا الرغبات والشهوات وأوقفناها تمامًا. وبفضل هذه النرفانا، يستطيع الإنسان أن يحقق لنفسه السلام والنجاة. لكن كيف يمكن أن نخلص الإنسانية جمعاء حتى تحقق السلام والنجاة؟ ألا يمكن أن تكون هناك "نرفانا" تخلص جميع البشر وتنقذهم وليس فردًا واحدًا فقط.

وهنا يتضح لنا جليًا أن الوسيلة الوحيدة للتغلب على الإرادة وقهرها هي إيقاف منبع الحياة وهو التناسل. فماذا جنى الأطفال حتى ندفع بهم في هذه الحياة بما فيها من آلام.

ولو تأملنا الحياة من حولنا لوجدنا أن جميع الناس مشغولون بتلبية احتياجاتهم ومكابدة ما في الحياة من شقاء. كما أنهم مشغولون فقط بالاحتفاظ بحياتهم المليئة بالآلام ولو لفترة قصيرة من الزمن. وهذا هو السبب الخفي لما يحيط بعملية التناسل من خجل.

المتهم الأول:

والمرأة هنا هي المتهم الأول[1]، وعليها تقع مسئولية الجريمة كاملة. وذلك لأنه لو تمكن الرجل من التحكم في إرادته وكبحها، تأتيه المرأة وتراوده من أجل التناسل.

(١) - تجاهل شوبنهور أن العلاقة بين الزوج وزوجته علاقة سامية تزداد قوة وتتوثق مع مرور الزمن، وهي ليست علاقة محرمة حتى تراود المرأة زوجها فتوقعه، ويرتكب الزوج الجريمة كما يقول. (المترجم)

والشباب لا يدرك أن سحر المرأة ومفاتنها لا يدومان، بل هما قصيرا الأجل. لكن عندما يكتمل عقل الشاب وينضج تفكيره، يكون ذلك في الوقت غير المناسب.

وقد وهبت الطبيعة البنات جمالاً أخاذًا وسحرًا وأنوثة تستمر معهن لسنوات طوال. وخلال تلك السنوات يقع الرجال في حبهن. وهكذا يقبل الرجال فورًا شرف الإنفاق عليهن. ولو فكر الرجال قليلاً لما تحملوا عبء الإنفاق على النساء. وكما تفقد النحلة جزءًا من جسدها عند التلقيح، تفقد المرأة جمالها وجاذبيتها بعد أول ولادة أو ولادتين على أقصى تقدير.

أصل الشرور في هذا العالم:

ولا شك أن من أطلق على النساء لقب "الجنس اللطيف" مخطئ[1]، فكيف تكون الأكتاف الضامرة والقامة القصيرة والأفخاذ العريضة جنسًا لطيفًا. وكان أجدر بنا أن نسميهن بالجنس الذي لا يتذوق الفن. فهن لا يتأثرن بالموسيقى والشعر والفنون الجميلة. ولا يتذوقن أي فن. كما أننا لو استعرضنا التاريخ فلن نجد أي مبدعة في تاريخ الفنون.

وهذا الاحترام الذي يكنه الرجل للمرأة وليد التعاليم المسيحية. كما أننا نجد أن الأوروبيين يستنكرون تعدد الزوجات بالكلام، إلا أنهم ينفذونه عمليًا. فقلما نجد منهم من تقتصر حياته الجنسية على زوجته فقط.

ومن الحمق أيضًا في نظر شوبنهور أن يكون للمرأة حق في الإرث. فهن مسرفات ومبذرات بطبعهن. وهذا يوجب ضرورة عدم السماح لهن بالإشراف على مصالحهن، وأن يكن خاضعات لإشراف من الرجال. أو أن يخضعن لإشراف حكومي كما يحدث في الهند.

ولكل ما تقدم، فإنه كلما قل ارتباط الرجل بالمرأة، كان ذلك أفضل. لكن المثل القائل بأنهن شر لابد منه خاطئ، فالحياة بدونهن أكثر أمنًا وهدوءًا[2]. لذلك ينبغي على الرجال التنبه لمكائدهن.

---

(١) - هنا يظهر شوبنهور عداءه للمرأة الذي يلصق بها كل شرور العالم، ومن الواضح أن حادثة مشاجرته مع أمه التي سبق أن أشار هذا الكتاب إليها أثرت في نظرته للمرأة بصفة عامة. وهو يحاول بشتى الطرق أن يوجد علاقة بين المرأة وكل ما في العالم من شرور. (المترجم)

(٢) - تجاوزات شوبنهور في حق المرأة ليس لها حدود حتى أنه يرى أن الحياة بدون المرأة أفضل بكثير، لكنه لم يوضح كيف تكون تلك الحياة والزواج من سنن الله في أرضه. (المترجم)

كما أن تطور العقل وزيادة الذكاء يضعف الرغبة في التناسل أو يؤجلها. فمتى نجد الشجاعة لتحدي الإرادة نوجهها إلى أن حب الحياة أكذوبة، وأن الموت أعظم نعمة للإنسان.

• ٨- نـقـد:

التناول الطبيعي لمثل تلك الفلسفة، هو أن يخضع الإنسان والعصر الذي يعيش فيه إلى فحص وتشخيص علمي.

فمن الواجب علينا إذن أن نفحص العصر الذي عاش فيه شوبنهور. فقد عاش في أوروبا المحطمة المحبطة، وذلك بعد أن تعرضت أثينا وروما إلى تيار شديد من الأفكار والعقائد الشرقية، ذلك بالإضافة إلى ما ساد في كثير من البلاد الأوروبية من فوضى وكوارث خلفتها الحروب. كل ذلك جعل أوروبا تستمع إلى شوبنهور وتجعله صوتًا لها. فقد كانت أوروبا تعاني من صراع مخيف في عام ١٨١٥م.

وقد أقر شوبنهور بأن سعادة الإنسان تعتمد على الإنسان نفسه أكثر من اعتمادها على الظروف الخارجية المحيطة به. كما أن التشاؤم نابع من الشخص المتشائم نفسه. وقد استمد شوبنهور فلسفته من مزاجه الخاص وفراغ حياته وعزلته وانطوائه على نفسه ولذلك طُبعت حياته وفلسفته بالتشاؤم، وكل ذلك بالإضافة إلى الآلام والأحزان التي كانت تسود عصره.

كما أن "النرفانا" التي وردت في كلامه هي أهم ما يسعى إليه الإنسان فاتر الهمة. أما الإنسان الذي يبدأ حياته بطموح يرمي إلى تحقيق غايات كبرى وأهداف سامية ثم ينتهي أمره بالفشل وعدم تحقيق تلك الأهداف، يمضي ما تبقى من عمره في تضجر وألم. ولا شك أن تجارب شوبنهور المؤلمة مع النساء أحدثت في داخله شك وحساسية شديدة تجاههن. ولذلك أصبح ساخرًا ومنعزلاً. فهو يرى بضرورة ألا تشرك حتى الصديق الوفي في أمرك، فيقول: "لا تخبر صديقك بما تخفيه عن عدوك." كما أنه دعا إلى حياة التنسك الرتيبة المملة وهو يخاف من الحياة الاجتماعية ولا يتذوق متعة الوجود مع الجماعة. وفي الحقيقة، فإن السعادة لا معنى لها أن لم يشاركنا فيها الآخرون.

ولا شك أيضًا أن التشاؤم نابع من الأنانية وحب الذات. لكن ذلك يتعارض مع الدرس الذي يلقننا إياه شوبنهور وهي أن مشاعرنا لا علاقة لها بالعالم. وأن نفورنا من العالم

ناتج عن نفورنا من أنفسنا. وقد نكون نحن المخطئين إلا أننا نلوم البيئة من حولنا أو العالم الذي نعيش فيه.

كما أن بعض التشاؤم السائد عند شوبنهور ومعاصريه ناتج عن نظرتهم الرومانسية والآمال الكبرى التي يضعونها على المستقبل. لكن عندما يتبين للرومانسي أن مثله الأعلى في السعادة ينتهي به إلى شقاء حقيقي، لا يوجه اللوم إلى مثله الأعلى بل يلوم العالم.

كما قال شوبنهور بأن نابليون صاحب أعظم إرادة فردية في تاريخ العالم، حيث بسط حكمه وسيطرته على أوروبا وغيرها من قارات العالم. وعلى الرغم من كل ذلك كانت نهايته رهيبة ومات كالحشرة عديمة القيمة. وكان من الأفضل لشوبنهور أن يعلم أننا نفضل أن نحارب في هذه الحياة ونخسر المعركة على أن نمكث في بيوتنا خانعين.

ثم هناك نقطة أخرى تناولها شوبنهور وهي تعدد الرغبات. فما الضرر من ذلك؟ فالسعادة كما يقول الأقدمون هي بلوغ المنى وليس في الامتلاك والشبع. والإنسان سليم البنية وصحيح العقل لا يبحث عن سعادة بقدر ما يبحث عن فرصة تمكنه من ممارسة قواه ومواهبه. وهو على استعداد أن يدفع مقابل تلك الحرية مقابل ذلك من العناء والآلام.

قال شوبنهور إن زيادة المعرفة تتبعها زيادة الألم. لكن من الأصح أن نعرف أن زيادة المعرفة تزيد السرور مثلما تزيد الألم. وأن الإنسان الراقي فقط هو من يتمتع بأعلى أنواع الفرح وأشد الألم.

ومن جهة أخرى، هل اللذة سلبية كما يقول شوبنهور؟ لا بالطبع، اللذة ليست سلبية في جميع الحالات. فاللذة تعني الانسجام التام مع ما تقوم به غرائزنا من أعمال. وهناك الكثير من الملذات التي لا يمكن لأحد أن يقول عنها أنها سلبية مثل: ملذات التحصيل والامتلاك والحكمة والسيادة والعمل واللعب والاجتماع والحب. هل من المعقول أن نعتبر المرح والسرور والبهجة ملذات سلبية؟ الحياة نفسها قوة إيجابية، وكل عمل عادي فيها يفيض بالمتع والمسرات.

ويرى شوبنهور أن الموت مفزع، وهو محق. فلا شك في أن الموت مفزع ومرعب.

لكن من الممكن أن يزول الخوف من الموت لو عاش الإنسان حياة عادية. وفي الحقيقة، فإن الفزع من الموت دليل على أن الحياة حلوة وممتعة. ولا حاجة لنا أن نذكر ما قاله نابليون من أن من يهابون الموت قلوبهم ملحدة أو كافرة.

ونعود لموضوع التشاؤم، فكيف يمكن لشوبنهور أن يكون متفائلاً وقد عاش أطول فترة من حياته في غرفتين في فندق صغير، كما أنه تخلى عن ابنه الوحيد وتركه بدون اسم شرعي طوال حياته. فمن الواضح أن سبب شقائه وتشاؤمه هو نبذ الحياة الطبيعية وبعده عن النساء والزواج والأطفال والأسرة الطبيعية.

أما ادعاؤه بأن التستر أثناء ممارسة الجنس ناتج عن الخجل من التناسل، فهذا لا يعني سوى الحماقة. وأعتقد أنه لا يوجد ما يفوق ذلك الادعاء في الحماقة. فهو يتجاهل متعة الغريزة الجنسية. إنها متعة كبيرة كانت مصدر إلهام لكثير من الشعراء والموسيقيين والمغنيين. لكن شوبنهور لم يعرف من النساء إلا ما يقعن فيه من إثم وخطيئة. كما أنه رفض تصور وجود نساء فاضلات شريفات عفيفات. ثم يصل إلى قمة السخف حين يتعجب من تولي الرجال الإنفاق على نسائهم !!

إلا أن شوبنهور لفت نظر علماء النفس إلى أهمية قوة الغريزة. ولذلك فنحن مدينون لشوبنهور لأنه كشف لنا خفايا صدورنا. كما أنه أظهر لنا أن رغباتنا هي قاعدة لفلسفته. وأوضح لنا طريق فهم الفكر ليس على أساس كونه تقديرًا مجردًا لأحداث غير شخصية. ولكن على أساس أنه أداة للرغبة.

وأخيرًا فقد علمنا شوبنهور بوجود العبقرية وأهمية الفن. وقد رأى أن الجمال هو الخير وأن الإبداع هو السعادة. كما أنه شارك جوته وكارليل في استنكار محاولات هيجل وكارل ماركس غيرهم لإسقاط العبقري كأداة سياسية في صنع تاريخ البشرية. كما أنه نادى بتكريم العظماء والاعتراف بمنزلتهم في وقت أهمل فيه الناس العظماء وأعمالهم العظيمة. وعلى الرغم مما وقع فيه شوبنهور من أخطاء فادحة إلا أنه استطاع فرض اسمه على قائمة العظماء.